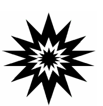
المطلب الأول

المقصود بتوحيد العبادة وبيان مثل المؤمن في شجرة الإيمان



الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قربه، ولا صلاح للقلب ولا فلاح إلا في الإخلاص له وتوحيد حبه، الذي إذا أطيع شكر، وإذا عصي تاب وغفر[1].

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد.. فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نتحدث في هذه المطلب بإذن الله تعالى عن المقصود بتوحيد العبادة وبيان المثل الذي ورد في الأصول القرآنية والنبوية، والذي يبين حال المؤمن في التوحيد والعبودية من خلال تشبيهه بالشجرة الطيبة النافعة

---

(١) من مقدمة زاد المعاد لابن القيم ١/٣٥، نشر مؤسسة الرسالة.

الحسية، وأثر هذا المثل في التعرف على توحيد العبودية والزيادة الإيمانية.

- **توحيد العبادة هو الإسلام وهو الإيمان في باب الأمر والطلب.**

حقيقة الإيمان في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب كانت ممثلة في تصديق الصحابة ﷺ لخبر الله وتنفيذ أمره، فتصديق الخبر هو معنى الإيمان، وتنفيذ الأمر هو معنى الإسلام، ذلك المبدأ، أعني مبدأ تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، بعيدا عن الفلسفات العقلية والآراء الكلامية التي أحدثتها مختلف الفرق الإسلامية، هو غاية من جاء بعدهم، وسلك دربهم في مختلف العصور، مهما تنوعت كلماته، أو بدت اعتقاداته في توحيد الله ﷻ، والعمل بأحكامه.

لقد كان المسلم في عصر خير القرون عندما يشهد ألا إله إلا الله؛ فإنه يكون قد عقد في نفسه عقدا أن الله ﷻ هو المعبود الحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان.

ولما كان الصحابة ﷺ هم أهل الفصاحة واللسان، وقد خاطبهم الله ﷻ بنوعي الكلام في القرآن؛ فإن منهجهم في مسائل التوحيد والإيمان هو تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر، فلو أخبرهم الله ﷻ عن شيء صدقوه تصديقا جازما يبلغ حد اليقين.

وهذا ما عرف لاحقا عند المتمسكين بمنهج السلف الصالح بتوحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو غير ذلك من مسميات واصطلاحات، تتنوع في دلالتها وتتكامل في بيان حقيقتها، ولا تتضارب في معانيها.

ولو أمر الرسول ﷺ صحابته ﷺ بشيء نفذوه تنفيذا كاملا بالقلب واللسان والجوارح، وهو ما عرف لاحقا بتوحيد العبادة، أو توحيد الإلوهية، أو توحيد القصد والطلب؛ لأن غاية التوحيد العظمى، وطريقة السلف المثلى، التي جاهدوا المخالفين لإلزامهم بها، أن يثبتوا لله ﷻ ما أثبته الله ﷻ لنفسه بتصديق خبره، وأن يطيعوا الله ﷻ فيما أمر به على لسان نبيه ﷺ .

وقد أجمع الصحابة ﷺ إجماعا سكوتيا دون مخالف، أن يصدقوا خبر ربهم وبلاغ نبيهم، وأن ينفذوا أمر معبودهم عن خضوع وتسليم، ومحبة وتعظيم، ولم يكن بينهم من دان بغير ذلك، ومن شك في ذلك فما قدرهم حق قدرهم، فهم كما صدقوا ﷺ نبيهم في كل ما أخبرهم عن الله ﷻ، فإنهم أيضا أطاعوه في كل ما أمر، وكانوا يبايعونه على ذلك.

روى الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (عَلى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَب وَكَرِهَ، إِلا أَن يؤْمَرَ بمَعْصِيةٍ، فَإِن أُمِرَ بمَعْصِيةٍ، فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ) [1].

وكان ذلك حال السلف أيضا روى الإمام مالك عَن ابن أَبي مُليكَةَ أَن عُمَرَ ﷺ مَرَّ بامْرَأَةٍ مَجْذومَةٍ وَهِي تطُوفُ بالبيت، فَقَال لَهَا: يا أَمَةَ اللهِ لا تؤْذي الناسَ، لوْ جَلسْت فِي بيتكِ فَجَلَسَت؟ فَمَرَّ بهَا رَجُل بعْد ذلكَ

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٦/٢٦١٢ (٦٧٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٦٩ (١٨٣٩) واللفظ لمسلم.

فَقَال لهَا: إن الذي كَان قَد نهَاكِ قَد مَات، فَاخرُجِي، فَقَالت: مَا كُنت لأُطِيعَهُ حيا، وأَعْصِيه ميتا [(١)].

• الإيمان في باب الأمر والطلب له ثلاثة أركان.

وكما أن الإيمان له في باب الأخبار ستة أركان، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كذلك فإن الإيمان له ثلاثة أركان في باب الأمر، وهي تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، وهي تتعلق بتنفيذ الأمر ظاهرا وباطنا، والسعي في تحقيق المطلوب وإرضاء المحبوب، وهذا توحيد العبودية لله ﷻ، أو توحيد القصد والطلب.

قال ابن القيم: (رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية، وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه، والأحكام التي للعبودية خمسة، واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح) [(٢)].

وهذا الكلام من أدق وأشمل ما قيل في معنى العبودية التي يجب على المسلم أن يوحد الله فيها، لأن أركان الإيمان الأساسية باعتبار تنفيذ أحكام العبودية عند السلف ثلاثة أركان، وهي تصديق بالجنان وقول

---

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب جامع الحج ١/٤٢٤ (٩٥٠).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ١/١٠٩، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي بيروت.

باللسان وعمل بالأركان [١].

قال العلامة ابن منده (ت:٣٩٥هـ): (الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالأركان، يزيد وينقص) [٢].

وكل واحد من هذه الأركان يستقل بتنفيذ أحكام العبودية بأنواعها الخمسة، وقد يشترك القلب مع اللسان فقط في تنفيذ حكم واحد، أو يشترك القلب مع الجوارح، أو يشترك القلب واللسان والجوارح جميعا في تحقيق أحكام العبودية، وسوف يأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله.

• الإيمان في حديث سفيان له ركنان أساسيان.

روى مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال: (قُلت: يا رَسُول اللهِ، قُل لي فِي الإِسْلَامِ قَوْلاً لاَ أَسْأَل عَنهُ أَحَدا بعْدكَ؟ وَفِي حَديث أَبى أُسَامَةَ، غَيرَكَ، قَالَ: قُل آمَنت باللهِ فَاسْتَقِمْ) [٣].

أصل الاستقامة الاعتدال على الطريق الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه في خط مستقيم، ولا يكون الاعتدال إلا بشمولية الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله ﷺ من أخبار، والتسليم لكل ما جاء عنهما من تشريعات وأوامر؛ فإن التقصير في جانب سيؤدي إلى المبالغة أو

---

(١) انظر الاستذكار لابن عبد البر ٣/١٠٤، نشر دار الكتب العلمية بيروت، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨/١٤ نشر دار الشعب القاهرة.

(٢) انظر الإيمان لابن منده ٣٤١/١ تحقيق د.علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، نشر مؤسسة الرسالة بيروت.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ٦٥/١ (٣٨).

الانحراف في جانب آخر.

روى الإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (خَطَّ لنا رَسُول اللهِ ﷺ خطًّا ثمَّ قَال: هَذا سَبيل اللهِ، ثمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَن يمينهِ وعَن شِمَالهِ، ثمَّ قَال: هَذهِ سُبل عَلى كُل سَبيل مِنهَا شَيطَان يدعُو إليهِ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ الأنعام:١٥٣)[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الكلام في باب التوحيد والصفات هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات، والكلام في الشرع والقدر هو من باب الطلب والإرادة، الدائر بين الإرادة والمحبة، وبين الكراهة والبغض، نفيا وإثباتا[٢].

وقد ظل أمر السلف الصالح في القرون الفاضلة على نهج الوسطية والاعتدال والشمولية، يسيرون بفضل الله على درب نبيهم ﷺ، يلتزمون بالسنة لا يقصرون فيها، ولا يهونون منها، ويحذرون من البدعة، وينبهون على خطورتها.

وقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ ثم يبلغه ويبينه لهم، وهم يتلقونه بالقبول، ويفهمونه ويؤمنون به، ولم يعرف عن أحد منهم أنه تردد أو استشكل شيئا من ذلك.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤٣٥/١ (٤١٤٢)، والنسائي في سننه في كتاب التفسير، سورة الأنعام ٣٤٣/٦ (١١١٧٤)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة (١٦٦).

(٢) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٣.

قال ابن عباس ﷺ: (ما رأيت خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ﷺ، كلهن في القرآن، يسألونك عن المحيض، ويسألونك عن الشهر الحرام، ويسألونك عن اليتامى، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم) (١).

• معاني كلمة العبادة وأصول اشتقاقاتها اللغوية.

العَبْدُ هو الإنسان، حُرّاً كان أو رَقيقا، ذكَرا كان أو أُنثى على اعتبار معنى الربوبية التي انفرد بها الله ﷻ والعبودية التي هي وصف من سواه، فكل ما سوى الله مربوب لبارئه، وعلى هذا المعنى جاء قول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ مريم:٩٣.

والعَبْدُ هو المَمْلوكُ خلافُ الحُرِّ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ البقرة:١٧٨.

وقد عبر القرآن عن العبد المملوك بمصطلح الفتى والرقبة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ الكهف:٦٠. وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ البلد:١١/١٣.

والعبد يجمع على أوجه كثيرة جمعها الشيخُ ابن مالكٍ في قوله:

عِبادٌ عَبِيدٌ جمْع عَبْدٍ وأَعْبَدٌ .. أَعابِدُ مَعْبُوداءُ مَعْبَدَةٌ عُبُدْ

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، باب كراهية الفتيا ٦٣/١ (١٢٥)، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١٤١/٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت، ومجمع الزوائد للهيثمي ١٥٨/١ نشر دار الريان للتراث القاهرة.

كذلك عُبْدَان وعِبْدَان اثبِتَن ..

كذلكَ العِبِدَّى وامدُدِ إن شِئتَ أَن تَمُدّ

واستَدركَ عليه الإمام جلال الدين السُّيوطي فقال:

وقد زِيدَ أَعْبَادُ عُبُودٌ عِبِدَّةٌ .. وخَفِّفْ بِفَتْحٍ والعِبِدَّان إِن تَشُدّ

وأَعْبِدةٌ عَبْدُون ثمَّتَ بَعْدَهَا..

عَبِيدُون مَعْبُودَى بِقَصْرٍ فخُذ تَسُدْ(١)

والبعيرٌ المُعَبَّدٌ هو الذلول المدهون بالقَطِران، وهو الذي أفرد فلا يدنو منه أحد، كما قال قائلهم: وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المعبّد.. والمعبّد كل طريق مذلل مسلوك يكثر فيه مرور الناس، والعَبْدِيةُ والعُبودِيةُ والعُبودَةُ والعِبادَةُ كلها بمعنى الطَّاعَةُ(٢).

- العبادة في المفهوم الاصطلاحي للأصول القرآنية والنبوية.

العبادة التزام المكلف بمنهج الله ﷻ وشرعه تعظيما لربه، وإن كان على خلاف هوى نفسه. وقيل: العبادة تعظيم العبد لله بامتثال أمره عن اختياره وحبه (٣).

والعبادة هي الغاية التي خلق الله العباد من أجلها، وبها أرسل الرسل

---

(١) انظر تاج العروس للمرتضى الزبيدي ٣٢٩/٨ نشر دار الهداية.

(٢) انظر بتصرف القاموس المحيط للفيروز أبادي ٣٧٨/١ نشر مؤسسة الرسالة بيروت، وتاج العروس للزبيدي ٣٢٩/٨ نشر دار الهداية، وكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٤٨/٢ نشر دار ومكتبة الهلال.

(٣) التعاريف على مهمات التعاريف للمناوي ص٤٩٨ نشر دار الفكر بيروت.

وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ﷻ ونهايته، فالحب الذي يخلو عن ذل، والذل الذي يخلو عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين معا، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله ﷻ، وهي وإن كانت منفعتها للعبد، والله غني عن العالمين فهي لله من جهة محبته لها ورضاه بها، ولهذا كان الله أشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض جرداء مهلكة إذا نام آيسا منها، ثم استيقظ فوجدها، فالله ﷻ أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته [1].

روى مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لَلهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤْمِن من رَجُل في أَرْضٍ دَوِّيةٍ مَهْلَكَةٍ، معه رَاحِلتُهُ عليها طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فنامَ فَاستَيقَظَ وقد ذهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حتى أَدْرَكَهُ العَطَشُ، ثمَّ قال: أَرْجِعُ إلى مَكَاني الذي كنت فيه فَأَنامُ حتى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ على سَاعِدِهِ ليمُوتَ، فَاستَيقَظَ وَعِندَهُ رَاحِلتُهُ وَعَليها زَادُهُ، وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِن من هذا بِرَاحِلتِهِ وَزَادِه) [2].

والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، والجهاد في سبيل الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان إلى

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩/١٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فى الحض على التوبة ٤/٢١٠٣ (٢٧٤٤).

الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والقراءة، وأمثال ذلك من أمور العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه وقدره التوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك من العبادة لله (١).

وذلك أن العبادة لله ﷻ هي الغاية المحبوبة المرضية له، والتي خلق الخلق من أجلها كما قال سبحانه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ الذاريات:٥٦.

والعبادة المعنية في الآية هي عبادة الاختيار دون الاضطرار، وهي العبادة التي يترتب عليها ظهور الحكمة في تشريع الأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والدخول في دين الإسلام، وترتيب الثواب والعقاب وصحة العرض والحساب.

وأصل كلمة العبد المعبد وهو الذي عبده الله ﷻ فذلله ودبر أمره وصرفه، وهذا التدبير قد يكون على المعنى الكوني أو المعنى الشرعي، فعلى الاعتبار الكوني فإن الخلق كلهم عباد الله من الأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشاءوا، وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن.

كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٤٩ بتصرف.

وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ آل عمران:٨٣. فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق إلا الله، سواء اعترفوا بذلك أو نكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه.

لكن أهل العبادة والإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به، واختاروا لأنفسهم هديه عن طواعية منهم، بخلاف من كان جاهلا بذلك أو جاحدا له مستكبرا على ربه، ولا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ﷻ ربه وخالقه، فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كانت عذابا على صاحبها كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل:١٤.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ البقرة:١٤٦.

وقال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنعام:٣٣.

أما إن اعترف العبد أن الله ﷻ ربه وخالقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه، لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه، وقد يعبده ويعبد مع ذلك الشيطان والأصنام، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار، ولا يصير بها الرجل مؤمنا.

والعبادة أصل معناها الذل أيضا يقال: طريق معبد إذا كان مذللا قد

وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله، بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق وآخرها التتيم، يقال: تيم الله، أي: عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله ﷻ أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، وكل من أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله ﷻ كان تعظيمه باطلا [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة:٢٤ .

• الفرق بين مفهوم عبادة الله وتوحيد العبادة لله.

لا بد هنا من بيان الفرق بين معنى العبادة وتوحيد العبادة، فالعبادة هي الخضوع التام المقترن بالإرادة وتعظيم المحبوب، فإن كان الخضوع والطاعة بغير إرادة فلا تسمى عند ذلك عبادة .

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٥٣.

وقد علمنا مما سبق في تعريف العبادة الذي ذكره ابن تيمية رحمه الله أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة) [1] . أو هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل [2].

وأن الإله هو الذي تألهه القلوب وتعبده بالمحبة والإجلال والتعظيم، والذل والخضوع، والعبادة لا تصح إلا له وحده، وهي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل[3].

أما توحيد العبادة لله فيعني إفراده بها، وهذا يمنع الشرك وتشبيه المخلوق بالخالق، ولذلك كان من شروط لا إله إلا الله الإخلاص لله وحده، فالمخلص لا يشبه غير الله بالله، لأن أصل الشرك في العبادة تشبيه المخلوق بالخالق، فيعظمه كتعظيم الله، ويحبه كمحبته له كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ البقرة:١٦٥.

ولما عذبوا في جهنم قالوا عن علة عذابهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ الشعراء:٩٦/٩٨.

وقد كان المشركون في الجاهلية يعلمون حقيقة الإخلاص وتوحيد العبادة، ولذلك رفضوا كلمة التوحيد: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٤٩/١٠، والفتاوى الكبرى ١٥٥/٥ .

(٢) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤٠٠/١٠.

(٣) انظر بتصرف الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ١٦٤/١، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ ص:٤/٦.

والمشركون أنفسهم كانوا يصرون على الشرك عند النعمة والرخاء، ويوحدون الله ﷻ عند الشدائد وحدوث البلاء، وقليل منهم من دان بالإخلاص وتحرى الخلاص من الشرك.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ العنكبوت:٦٥.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ الإسراء:٦٧/٦٩ .

وروى النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عن أَبِيهِ ﷺ أنه قال: (لَمَّا كَانَ يومُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الناسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نفرٍ وَامْرَأَتَين، وقَال: اقْتُلوهُمْ وَإِن وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلقِين بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ. عِكْرِمَةُ بْن أَبِي جهْل، وَعَبْدُ اللهِ بْن خطَل، وَمقِيسُ بْن صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْن سَعْدِ بْن أَبِي السَّرْحِ، فَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْن خطَل فَأُدْرِك وَهُوَ مُتَعَلقٌ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ، فَاسْتَبَقَ إِليهِ سَعِيدُ بْن حُرَيث وَعَمَّارُ بْن ياسِرٍ، فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وَكَان أَشَبَّ الرَّجُلين فقتَلهُ، وَأَمَّا مقِيسُ بْن صُبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ الناسُ فِي السُّوقِ فقتَلوهُ. وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ البَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ

عَاصِفٌ فَقَال أَصْحَابُ السَّفِينةِ: أَخْلصُوا فَإِن آلهَتَكُمْ لاَ تُغْنى عَنكُمْ شَيْئًا هَا هُنا. فَقَال عِكْرِمَةُ: وَاللهِ لئِن لَمْ ينجِّني مِن البَحْرِ إلاَّ الإِخْلاَصُ لاَ ينجِّيني فِي البَرِّ غَيرُهُ، اللهُمَّ إن لكَ عَلي عَهْدًا إن أَنتَ عَافَيتَني مِمَّا أَنا فِيهِ أَن آتِي مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يدِي فِي يدِهِ فَلأجِدَنهُ عَفُوًّا كَرِيمًا. فَجَاءَ فَأَسْلمَ، وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْن سَعْدِ بْن أَبِي السَّرْحِ فَإنهُ اخْتَبَأَ عِندَ عُثْمَان بْن عَفَّان، فَلمَّا دَعَا رَسُول اللهِ ﷺ الناسَ إلى البَيعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلى النبِي ﷺ قَال: يا رَسُول اللهِ بَايعْ عَبْدَ اللهِ. قَال: فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنظَرَ إليهِ ثلاَثًا كُل ذلكَ يأبَى فَبَايعَهُ بَعْدَ ثلاَث ثمَّ أَقْبَل عَلى أَصْحَابِهِ فقَال: أَمَا كَان فِيكُمْ رَجُل رَشِيدٌ يقُومُ إلى هَذا حَيث رَآني كَفَفْتُ يدِي عَن بَيعَتِهِ فَيقْتُلهُ. فَقَالوا: وَمَا يدْرينا يا رَسُول اللهِ مَا فِي نفْسِكَ هَلاَّ أَوْمَأْتَ إلينا بِعَينكَ. قَال: إنهُ لاَ ينبَغِي لنبِي أَن يكُون لهُ خَائِنةُ أَعْين) [1].

ومعنى قول أصحاب السفينة أخلصوا أي وحدوا ربكم في الدعاء والاستغاثة، وقد كانوا يلجئون في الرخاء إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وعند الشدائد يوحدون.

وهكذا دعاء الأموات وتأليه قبور الصالحين ينافي التوحيد والإخلاص ويستلزم أن تجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا مشابها لمن كانت أزمة الأمور بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؟ فالذي يدعو الأموات يثبت لهم بصورة حتمية أوصاف الربوبية التي انفرد الله بها، فيثبت أنه يسمع ويبصر ويعلم ويقدر، وأنه غني يدعى

---

(١) رواه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب الحكم في المرتد ١٠٥/٧ (٤٠٦٧) نشر مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، وانظر صحيح أبي داود (٢٣٣٤).

ويقصد، وهذا هو الشرك في العبادة، أما توحيد العبادة فمبناه على الإخلاص لله وحده، هذا الإخلاص الذي يطهر العبد من دنس الشرك ويشعره بنور التوحيد في قلبه، فلا يدعو غير الله، ولا يطلب المدد من سواه، ولا يستعن إلا بالله، ويجعل الطواف مقصورا ببيت الله، ولا يقبل ضريحا أو مقصورة أو حجرا إلا حجرا واحدا أمرنا الله ﷻ بتعظيمه، ولا يذبح إلا لله، ويذبح باسم الله وحده، ولا يجعل النذر لسواه، ولا يتخذا على القبر مسجدا، ولا يقم فيه أبدا.

• أحكام العبودية وتعلقها بتوحيد الإلوهية .

أحكام العبودية هي درجات الأمر التكليفي من حيث إلزام العبد بها أو تخيره فيها سواء بالفعل أو الترك، وهى الأحكام الشرعية الدينية التي دل عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد صنفها علماء الأصول إلى خمسة أنواع:

١ـ الواجب أو الفرض: فإذا أمر الله عباده بأمر معين فإنه ملزم لهم ويتحتم عليهم تنفيذه، وإذا امتنع العبد كان عرضة للعقاب، لأن الإنسان في الأصل عبد مخلوق مملوك، ونعم الله عليه لا تحصى ولا تعد، فلكونه عبد يجب عليه طاعة معبوده، فإذا أمرنا الله ﷻ بأمر فالأصل فيه الوجوب والحتم والإلزام، وذلك أول أحكام العبودية ويسمى بالفرض أو الواجب ولا فرق بينهما عند الجمهور [١] .

ويمكن التعرف على صيغ الأمر الملزم التي تدل على الوجوب من

---

(١) انظر بتصرف الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ٢/٢٧٤، وشرح النووي على صحيح مسلم ٥/٧٤ نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

خلال فعل الأمر المجرد، أو يعبر عن الطلب بلفظ كتب؛ فإنه يدل على الفرض أو الوجوب، أو يصرح النص بلفظ فرض أو وجب، فإنه مصرح بدرجة الحكم وهى الفرضية أو الوجوب، أو تكون الصيغة التي تدل على طلب الفعل مقترنة في تركه بوعيد كعذاب أو غضب أو لعن على ترك الفعل .

٢ـ المندوب أو المستحب: فقد يأمر الله ﷻ بأمر، ولا يريد الحتم والإلزام، وإنما أراد به الاستحباب أو الندب، بمعنى أن الله يريد فعل ما يثاب عليه العبد فيكثر من حسناته ولا يعاقبه على تركه للفعل، وهذا هو معنى المستحب أو المندوب من أحكام العبودية، فالمستحب هو ما أمر به الشارع لا على وجه الحتم والإلزام، أو ما ندب الشارع إلى فعله دون إلزام أو عقاب، ويعرف أيضا بأنه ما يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه.

٣ـ المباح أو الجائز: قد يخرج الأمر عن الوجوب إلى الإباحة لدليل يقتضى ذلك، وأكثر ما يقع ذلك إذا ورد بعد الحظر، أو جوابا لما يتوقع أنه ممنوع، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ المائدة:٢ . أي بعد أن تتحللوا من إحرامكم للحج أباح لكم الاصطياد، فاصطادوا أو لا تصطادوا، فالأمر على وجه التخيير والإباحة، بعد أن كان محرما أثناء الحج، والمباح قد لا يتعلق بأمر أو نهى، ويترك الخيار للعبد في الفعل أو الترك، ويسمى أيضا بالحلال أو الجائز.

٤ـ المكروه: ويقابل المستحب هو ما نهى عنه الشارع لا على وجه الحتم والإلزام، أو هو ما يثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، ومن أمثلته

مباشرة الرجل زوجته دون الجماع وهى حائض بدون ثوب.

٥ـ المحرم: ويقابل الواجب، ومعناه في اللغة الممنوع، ويقصد به في أحكام العبودية ما نهى عنه الشارع على وجه الحتم والإلزام، ويعرف الحرام إذا ورد النص بصيغة النهى المجرد عن القرائن كالمضارع المقرون بلا الناهية، نحو: ولا تقربوا. ويعرف الحرام أيضا إذا ورد التصريح بلفظ التحريم. ويعرف أيضا بأن تكون الصيغة التي تدل على طلب الترك مقترنة بوعيد وعقاب كالمنع من الجنة، أو الدخول في النار، أو اللعن أو الغضب أو الذم أو القبح أو ما شابه ذلك (١) .

• الوسطية والشمولية في تطبيق أحكام العبودية.

مفهوم العبادة كما قررها المتبعون لنهج السلف تعني الطاعة لله ﷻ بالتزام ما أمر به على ألسنة الرسل (٢).

وما أمر الله به يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، ويتنوع أيضا حسب الأحكام التكليفية إلى خمسة أنواع هي الواجب والمستحب والمباح والمكروه والمحرم، ومن ثم فإن قواعد العبادة الحقة مبنية على خمس

---

(١) يمكن الرجوع في معرفة أحكام العبودية أو الأحكام التكليفية إلى المستصفى في علم الأصول لأبى حامد الغزالي من ص٥٤ إلى ص٧٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت، والمحصول في علم الأصول لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي ١/١٠٧ وما بعدها، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض، وأصول السرخسي ١/١١ نشر دار المعرفة بيروت، والموافقات في أصول الفقه، لإبراهيم بن موسى اللخمي ١/١٠٩ نشر دار المعرفة بيروت.

(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم ١/٧٤، ٢/١٨٢، والجواب الكافي ١/١٦٤ ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٥٧.

عشرة قاعدة تتصف بالشمولية والتناسب العام في جميع الأحكام، وأي تشدد أو خلل في جانب منها سوف يؤثر سلبا على الجانب الآخر .

وقد تقدم كلام ابن القيم عندما حاول أن يحصي قواعد العبادة في الأعمال البدنية والقلبية برؤية سلفية تحدد بدقة وشمولية أركان العبودية لله ﷻ وكيف يحققها الإنسان في الحياة، فبين أن رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية (١) .

وكل قاعدة من تلك الأعمال الظاهرة والباطنة لها علم وفقه، وبيان وفهم، ولها شواهد كثيرة من الكتاب والسنة، وقد جمعها ابن القيم على وجه التفصيل وبين أحكامها كما جاء في التنزيل (٢) .

أما الغلو في العبادة وعدم التزام الوسطية والشمولية في تطبيق أحكام العبودية كما حدث عند كثير من الصوفية فإنه يؤدي إلى الخلل في منهج العبودية، فكثير من الصوفية نظر إلى أحكام العبودية على معنى الاضطرار الذي لا مساغ فيه بحيث لا يجد العبد مجالا للمستحبات والمباحات، أو خيارا مقبولا لو وقع في المكروهات.

قال عبد الله بن محمد بن مُنازِل وهو من كبار الصوفية (ت:٣٢٩هـ): (العبودية اضطرارا لا اختيار فيه) (٣) .

وهو يعني بذلك الصيام الدائم والقيام المستمر، والشهوة الموصدة والفقر المدقع. أو كما قال إبراهيم الخواص (ت:٢٩٩هـ): (من ادعي

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ١/١٠٩.

(٢) انظر السابق ١/١١٠ وما بعدها.

(٣) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص٣٦٨.

العبودية وله مراد باق فيه، فهو كاذب في دعواه) [١] .

وهذا يعني أن كثيرا من أوائل الصوفية أسقطوا من قواعد العبادة كل ما فيه مندوحة للإنسان من أحكام التكليف المتعلقة بالمستحبات والمباحات والمكروهات رغبة في الوصول إلى التحرر من كل ما سوى الله، والعمل في مرضاته على وجه الاضطرار، فيجعلون المستحب في منزلة الواجب، والمكروه في منزلة المحرم، كل الأحكام عندهم على سبيل الحتم والإلزام بدعوى التحرر من قيود الشهوة .

قال أبو بكر الشبلي (ت:٣٣٤هـ): (كنت في أول بدايتي إذا غلبني النوم أكتحل بالملح، فإذا زاد علي الأمر أحميت الميل فأكتحل به) [٢] .

وقال إبراهيم بن شيبان لأبي بكر الشبلي: (كم في خمس من الإبل؟ أي مقدار الزكاة فيها؟ فقال الشبلي: في واجب الأمر شاة ـ أي حكم الشرع عند عامة المسلمين شاة ـ وفيما يلزمنا كلها ـ أي في عرف الصوفية يخرجونها كلها) [٣] .

ونجد أيضا بين صوفية القرن الثالث الهجري من يحرم على نفسه أكل ما أباح الله له من أنواع الطعام، حتى إنه ليقول لمريد من مريديه قد مد يده إلى قشر البطيخ يريد أن يأكل منه شيئا: (أنت لا يصلح لك

---

(١) السابق ص٤٤، ٢٤٥.

(٢) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص ٢٠٤. والميل عود يوضع في وعاء الكحل تكتحل به المرأة، انظر لسان العرب لابن منظور الأفريقي ١١/٦٣٩.

(٣) السابق ص٢١٠.

التصوف الزم السوق) [1].

كما نجد ما هو أشد من ذلك لأبي الحسين أحمد بن محمد النوري (ت:٢٩٥هـ) حيث صعد قنطرة وأخذ يرمي ثلاثمائة دينار في الماء واحدا واحدا، ثمن عقار بيع له، وهو يقول مخاطبا ربه: (حبيبي تريد أن تخدعني منك بمثل هذا) [2].

وعطش رويم بن أحمد البغدادي (ت:٣٠٣هـ) عطشا شديدا فاستسقى جارية، فقالت: (ويحك صوفي يشرب بالنهار، فاستحى منها، ونذر ألا يفطر أبدا) [3].

وهذا وإن دل على علو الهمة، ولم يكن منهم عن سوء نية، لكن ذلك هو بعينه الغلو في العبادة الذي حذر منه النبي ﷺ.

روى البخاري من حديث أنس ﷺ أنه قال: (جَاءَ ثلاَثَةُ رَهْطٍ إلى بُيوتِ أَزْوَاجِ النبِي ﷺ يسْأَلون عَن عِبَادَةِ النبِي ﷺ؟ فَلمَّا أُخبِرُوا كَأَنهُمْ تَقَالوهَا فَقَالوا: وَأَين نحْن مِن النبِي ﷺ قَدْ غُفِرَ لهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ وَمَا تَأَخرَّ؟ قَال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنا فَإِني أُصَلي الليل أَبَدًا. وَقَال آخرُ: أَنا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَال آخرُ: أَنا أَعْتَزِل النسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَال: أَنتُمُ الذين قُلتُمْ كَذا وَكَذا، أَمَا وَاللهِ إني لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتقَاكُمْ له، لكِني أَصُومُ وَأُفطِرُ، وَأُصَلي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النسَاءَ، فَمَن

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٩، والقائل هو أبو تراب النخشبي (ت٢٤٥هـ).
(٢) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٩٣.
(٣) الرسالة القشيرية ١/١٢٨.

رَغِبَ عَن سُنتِي فَليسَ مِني) [١].

وما فعله رويم بن أحمد البغدادي يناقض الحديث، فعندما نذر ألا يفطر أبدا وعزم على الوصال في الصيام إنما كان رد فعل لما انقدح في ذهن الجارية التي طلب منها الماء أن الصوفي هو من يصوم الدهر ولا يفطر، فقالت له منكرة كما تقدم: صوفي يشرب بالنهار ؟ .

وما فعله أبو بكر الشبلي عندما أكتحل بالملح، أو لسع عينه بالميل بعد أن وضعه في النار رغبة منه في المداومة على قيام الليل مخالف لما رواه البخاري من حديث أنس ﷺ أنه قال: (دَخَل النبِي ﷺ فَإذا حَبْل مَمْدُودٌ بَين السَّاريتَين فَقَال: مَا هَذا الحَبْل؟ قَالوا: هَذا حَبْل لزَينبَ، فَإذا فَتَرَتْ تَعَلقَتْ، فَقَال النبِي ﷺ: لاَ، حُلوهُ، ليصَل أَحَدُكُمْ نشَاطَهُ، فَإذا فَتَرَ فَليقْعُدْ) [٢].

ولو أمرها النبي ﷺ بالاكتحال كما فعل الشبلي أو قال لها: جزاك الله خيرا أحسنت صنعا، لوقعت المشقة التي يعز على العبد أن يداوم عليها إلا على حساب التقصير في أمور أخرى سوف تؤدي إليها الضرورة الفطرية في خلق الإنسان، ولو سمح النبي ﷺ بمثل هذه الأفعال لظهر التصوف في عصر النبوة منذ وقت مبكر .

---

(١) رواه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح ٥/١٩٤٩ (٤٧٧٦)، ومسلم في كتاب، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ٢/١٠٢٠ (١٤٠١).

(٢) رواه البخاري في أبواب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ١/٣٨٦ (١٠٩٩)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس فى صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك ١/٥٤١ (٧٨٤)، ومعنى فترت أي ضعفت وتكاسلت.

ولا شك أيضا أن الضرورة قد تدعو المسلم إلى التضحية بما يملك في بعض الأوقات والأزمات كما فعل أبو بكر الصديق ﷺ، لكن التضحية على الدوام، وفي أوقات الرخاء بكل ما يملكه الإنسان ويغنيه عن الناس مخالفة صريحة لسنة النبي ﷺ لما ثبت عند البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال: (عَادَني النبِي ﷺ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ مِن وَجَعٍ ، أَشْفَيتُ مِنهُ عَلى المَوْتِ، فَقُلتُ: يا رَسُول اللهِ بَلغَ بِي مِن الوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنا ذو مَال وَلاَ يرثني إلاَّ ابْنَةٌ لي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثلثي مَالي؟ قَال: لاَ، قُلتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ قَال: لاَ، قُلتُ: فَالثلث، قَال: وَالثلث كَثيرٌ، إِنكَ أَن تَذرَ وَرَثَتَكَ أَغْنياءَ خَيرٌ مِن أَن تَذرَهُمْ عَالَةً يتَكَفَّفُون الناسَ، وَلَسْتَ تُنفِقُ نفقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللقْمَةَ تَجْعَلهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ) (١) .

والشاهد أنه لو كان خروج سعد ﷺ من جميع المال فيه صلاح له لأمره النبي ﷺ بذلك، فأين هذا من فعل أبي الحسين النوري عندما صعد القنطرة ورمى الدنانير في الماء واحدا واحدا وسمي ذلك خروجا من خداع الله له بالمال؟

ومن ثم فإن السنة فيها مراعاة للضروريات بالقدر الذي يتناسب مع ماهية الإنسان وفقره الذاتي، فالإنسان لا يعتاد شيئا إلا ويشعر بالسآمة، وقد جعل الله فطرة الإنسان وعلاقته بمن حوله ميدانا تظهر فيه آثار ربوبيته وأسمائه وصفاته، وجعل المنهج النبوي ميدانا لتحقيق العبودية

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب حجة الوداع ٤/١٦٠٠ (٤١٤٧)، ومسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث ٣/١٢٥٠ (١٦٢٨) .

ومقياسا دقيقا عند صدق النية، فمن المعلوم أن الشمولية في فهم العبادة وصف لا يلحق إلا من سلك مسلك النبي ﷺ في كل متعلقات الحياة، فالتوازن قائم ومنسجم في كل النواحي المتعلقة بأحكام العبودية، فإذا بالغ العبد في آداء جانب سيظهر تقصيره في جانب آخر دون أن يشعر، فالطاقة والوسع مجالهما محدود فيما منحه الله للإنسان .

ومن ثم فإن كثيرا من أوائل الصوفية لما بالغوا في تحقيق العبودية وتكلفوا أمور الاستحباب على وجه الحتم والإلزام، وأسقطوا النظر إلى درجات التكليف في الأحكام، لم تطرد المبالغة أو تنسحب على كل مفردات الإسلام، ومن ثم برز جانب على حساب آخر، ففي الوقت الذي ظهرت المغالاة في بعض العبادات كالصلاة والصيام والذكر وبعض النواحي الأخرى، لم تظهر همتهم في تعبيد الدنيا لله ﷻ وإعداد أسبابها للدعوة وإرهاب العدو، والجهاد في سبيل الله وتنظيم الروابط الأسرية والاجتماعية، بل أثروا الرباط والخلوة والسياحة في البوادي وقام بالأمور الأخرى غيرهم.

- **الأدلة النقلية على تشبيه الإيمان بالشجرة الحسية.**

ورد في الكتاب والسنة وتشبيه الإيمان بالشجرة، وأن المؤمن في نمائه وعطائه كالشجرة الطيبة في نموها ونفعها وعطائها ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ إبراهيم: ٢٤/٢٧.

٢- وروى البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن مِن الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يسْقُطُ ورَقُها، وإنها مَثل المُسْلِم. فَحَدِّثوني مَا هِي؟ فَوَقَعَ الناسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي. قَال عَبْدُ اللهِ: ووَقَعَ فِي نفْسِي أَنها النخْلةُ. فَاسْتَحْيَيتُ. ثمَّ قَالوا: حَدِّثنا مَا هِي يا رَسُول اللهِ؟ قَال: هِي النخْلةُ) [١].

٣- وفي لفظ آخر عند البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أنه قال: (كُنتُ عِندَ النبِي ﷺ وَهُوَ يأْكُل جُمَّارًا، فَقَال: مِن الشَّجَرِ شَجَرَةٌ كَالرَّجُل المُؤْمِن. فَأَرَدْتُ أَن أَقُول هِي النخْلةُ، فَإِذا أَنا أَحْدَثهُمْ. قَال: هِي النخْلةُ) [٢].

٤- وعند البخاري أيضا من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَثل المُؤمِن كَمَثل شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ، لا يسْقُطُ ورَقُها، ولا يتَحَاتُّ. فقَال القَوْمُ: هِي شَجَرَةُ كَذا، هِي شَجَرَةُ كَذا. فَأَرَدْتُ أَن أَقُول هِي النخْلةُ وأَنا غُلامٌ شَابٌّ، فَاسْتَحْيَيتُ. فَقَال: هِي النخْلةُ) [٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا ٣٤/١ (٦١)، ورواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة ٢١٦٤/٤ (٢٨١١).

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع، باب بيع الجمار وأكله ٧٦٨/٢ (٢٠٩٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب ما لا يستحيا من الحق للتفقه في الدين ٢٢٦٨/٥ (٥٧٧١).

٥- وروى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن الذي يقْرأُ القُرآن كَمَثل الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيبٌ وَطَعْمُهَا طَيبٌ. ومَثل المُؤْمِن الذي لا يقْرأُ القُرآن كَمَثل التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لهَا وَطَعْمُهَا حُلوٌ. وَمَثل المُنافِقِ الذي يقْرأُ القُرآن مَثل الرَّيحَانةِ، رِيحُهَا طَيبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثل المُنافِقِ الذي لا يقْرأُ القُرآن كَمَثل الحَنظَلَةِ، ليسَ لهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ) (١).

٦- وروى البخاري من حديث كعب بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن كَالخَامَةِ مِن الزَّرْعِ، تُفَيئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً وَتَعْدِلهَا مَرَّةً. وَمَثل المُنافِقِ كَالأَرْزَةِ، لا تَزَال حَتَّى يكُون انجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً) (٢).

٧- وفي لفظ عند مسلم من حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن كَمَثل الخَامَةِ مِن الزَّرْعِ تُفِيئُهَا الرِّيحُ، تَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلهَا أُخْرَى حَتَّى تَهِيجَ. وَمَثل الكَافِرِ كَمَثل الأَرْزَةِ المُجْذيةِ عَلى أَصْلهَا لا يفِيئُهَا شَيءٌ حَتَّى يكُون انجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً) (٣).

٨- وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام ٥/٢٠٧٠ (٥١١١)، والأترجة ثمرة تشبه الحجم الصغير من القرع العسلي.

(٢) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى ٥/٢١٣٧ (٥٣١٩). كالخامة أي كالغض الرطب من النبات أول ما ينبت، ومعنى تفيئها تميلها، وتعدلها ترفعها، ومعنى انجعافها انقلاعها.

(٣) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز ٤/٢١٦٣ (٢٨١٠) والمجذية الثابتة المنتصبة، انظر لسان العرب لابن منظور الأفريقي ١٤/١٣٧.

قال: (مَثل المُؤْمِن كَمَثل الخَامَةِ مِن الزَّرْعِ مِن حَيث أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا فَإِذا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالبَلاءِ. وَالفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يقْصِمَهَا اللَّهُ إِذا شَاءَ) [(١)].

٩- وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن كَمَثل خَامَةِ الزَّرْعِ، يفِيءُ وَرَقُهُ مِن حَيث أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذا سَكَنتْ اعْتَدَلَتْ، وَكَذلك المُؤْمِن يكَفأُ بِالبَلاءِ. وَمَثل الكَافِرِ كَمَثل الأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يقْصِمَهَا اللَّهُ إِذا شَاءَ) [(٢)].

١٠-وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تفيئه، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد) [(٣)].

• الشجرة الطيبة شجرة الإيمان وتوحيد العبودية.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى ٥/٢١٣٨ (٥٣٢٠). ومعنى كفأتها أمالتها، وتكفأ بالبلاء أي تقلب بالمصيبة أي أن المؤمن إذا أصابه بلاء رضي بقدر الله تعالى فإذا زال عنه قام واعتدل بشكر الله تعالى فانقلب البلاء خيرا ورحمة، ومنى صماء أي صلبة شديدة، ومعنى يقصمها من القصم وهو الكسر مع الإبانة، أي فصل الأجزاء عن بعضها.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ٦/٢٧١٦ (٧٠٢٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز ٤/٢١٦٣ (٢٨٠٩)، والترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ ٥/١٥٠.

مما ورد من النصوص النقلية نجد أن نماء توحيد العبودية في القلب يشبه الشجرة الطيبة في نمائها، وثبات أصلها، وعلو فروعها، وقوة نفعها وكثرة ثمارها، وطيب ريحها، ومرونتها مع العوامل الخارجية، وأنها لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة، الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت حقيقة هذه الكلمة في قلبه، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك حقيقة التوحيد ولوازمها عن كل ما سوى الله، واتفق قلبه ولسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد لله بالوحدانية، طائعة سالكة سبل ربها ذللا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب، على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت.

وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح ويصعد مع الكلم الطيب كما قال تعالى:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ

يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ فاطر: ١٠.

أخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا، متصفا بموجبها، قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت [1].

كما أن الكلمة أصل العقيدة، فإن الاعتقاد هو الكلمة التي يعتقدها المرء، وأطيب الكلام والعقائد كلمة التوحيد، واعتقاد أن لا إله إلا الله، وأخبث الكلام والعقائد كلمة الشرك، وهو اتخاذ إله مع الله، فإن ذلك باطل لا حقيقة له، ولهذا قال سبحانه: ما لها من قرار. ولهذا كان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الكلمات والعقائد الخبيثة لا يزداد إلا ضلالا وبعدا عن الحق، وعلما ببطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ النور: ٣٩/٤٠ .

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى مثلين: أحدهما مثل الكفر والجهل

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ١/١٧٣ نشر دار الجيل بيروت.

المركب الذي يحسبه صاحبه موجودا، وفي الواقع يكون خيالا معدوما كالسراب، وأن القلب عطشان إلى الحق كعطش الجسد إلى الماء، فإذا طلب ما ظنه ماءا وجده سرابا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وهكذا تجد عامة هؤلاء الخارجين عن السنة والجماعة.

والمثل الثاني مثل الكفر والجهل البسيط، الذي لا يتبين فيه صاحبه حقا، ولا يرى فيه هدى، والكفر المركب مستلزم للبسيط، وكل كفر فلا بد فيه من جهل مركب.

ضرب الله سبحانه المثلين بذلك ليبين حال الاعتقاد الفاسد، ويبين حال عدم معرفة الحق، وهو يشبه حال المغضوب عليهم والضالين، حال المصمم على الباطل حتى يحل به العذاب، وحال الضال الذي لا يرى طريق الهدى(١).

وقد ذكر شيخ الإسلام أنه إذا قام بالقلب التصديق بالحق والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله.

كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وهي كلمة التوحيد.

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٧٤ وما بعدها.

والشجرة كلما قوي أصلها وعرقها وروي، قويت فروعها، وفروعها أيضا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها، وكذلك الإيمان في القلب، والإسلام علانية.

ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة، كان يستدل بها عليها كما في قوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ المجادلة:٢٢ .

فأخبر أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر، لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله ﷺ، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم، فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ المائدة:٨٠. وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٥ .

أخبر الله تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم آمنا، ودل ذلك على أن الناس في قولهم آمنا منهم صادق وكاذب، والكاذب فيه نفاق

بحسب كذبه [١].

لقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين، والكلمة هي قضية جازمة، وعقيدة جامعة، ونبينا ﷺ أوتى فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين وهى العقيدة الإيمانية التوحيدية كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فأصل أصول الايمان ثابت في قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة، وفرعها في السماء كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر:١٠.

والله سبحانه مثّل الكلمة الطيبة أي كلمة التوحيد بشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن، ولها فرع عال، وهي ثابتة في قلب ثابت، كما قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ إبراهيم:٢٧ .

إن المؤمن عنده يقين وطمأنينة، والإيمان في قلبه ثابت مستقر، وهو في نفسه ثابت على الايمان مستقر، لا يتحول عنه، والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض أي استؤصلت كما يقطع الشيء ويجتث من فوق الأرض.

ومعنى ما لها من قرار، إما أنها لا مكان لها تستقر فيه، أو لا استقرار

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٤١ بتصرف.

لها في المكان، فان القرار يراد به مكان الاستقرار، كما قال تعالى: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ إبراهيم:٢٩. وقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾غافر: ٦٤.

ويقال: فلان ما له قرار، أي ثبات، وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا، فالمبطل ليس قوله ثابتا في قلبه، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر، كما قال تعالى في المثل الآخر: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ ﴾ الرعد:١٧. فإنه وإن اعتقده مدة، فانه عند الحقيقة يخونه، كالذي يشرك بالله فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله.

وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فمن كان معه إيمان وكلمة طيبة أصلها ثابت، كان له فرع في السماء يوصله إلى الله ﷻ، فانه سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول.

ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ ﴾ الرعد:١٤.

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وإنما يعبد بما أمر به على ألسنة رسله، وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسله، ولهذا كان

مذهب السلف أنهم يصفون الله ﷻ بما وصف به نفسه وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره، وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته، ولا عبدوه حق عبادته.

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ما قدروا الله حق قدره في ثلاثة مواضع ليثبت عظمته في نفسه، وما يستحقه من الصفات، وليثبت وحدانيته، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وليثبت ما أنزله على رسله، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ الأنعام: ٩١.

وقال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ الحج: ٧٤.
وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الزمر: ٦٧.

وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته، وأن يجاهد فيه حق جهاده، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ الحج: ٧٨. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ آل عمران: ١٠٢.

ومن ثم وجب على المؤمنين أن يصدقوا الرسول ﷺ فيما أخبر، وأن

يطيعوه فيما أوجب وأمر، وأما ما يخرج عن طاقة البشر، فذلك لا يذم أحد على تركه [1].

• الحكمة في تشبيه المؤمن بالشجرة الطيبة والكافر بالخبيثة.

في هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الله الذي تكلم به، وحكمته البالغة وحجته الدامغة فمن ذلك:

١- أن الشجرة لا بد لها من عروق، وساق، وفروع، وورق، وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسمت الصالح، فيستدل على غرس جذور هذه الشجرة في القلب، وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله ﷻ كتابه به، والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والنهي، إذا كان ذلك مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

٢- ومن الحِكم أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣/١٦٠ بتصرف.

فإذا قطع عنها ما ء السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت، بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس، فالإيمان يزيد وينقص، والغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك. ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله ﷻ به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته، وإحسانه إلى عباده، بأن وظفها عليها، وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

٣- ومن الحِكَم أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه نبت غريب، ليس من جنسه، ولا نفع فيه يشاركه ماء سقياه ومادة غذاه، فإن تعاهده صاحبه ونقاه، وقلعه ونظف المكان وسواه، استكمل الزرع نماءه واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته، وأطيب وأزكى في منفعته. وإن تركه أوشك أن يغلب النبت الغريب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة، بحسب كثرته وقلته، ومن لم يكن له فقه ومعرفة في هذه الزراعة، فإنه يضعف محصوله، ويفوته ربح كثير وهو لا يشعر، فالمؤمن دائما سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة بماء العلم واليقين وأعمال الإيمان، وتنقية ما حولها من خواطر الهوى وشبهات الشيطان، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم .

٤- ومن الحِكَم أن الشجرة يؤثر أصلها على فروعها، فلو انقطع

بعض جذورها أو انكسر ساقها تأثرت أوراقها وذبلت أو ماتت ويبست، وتؤثر فروعها على أصلها فلو حجبت عن ضوء الشمس أو كثر عليها غبار الطريق تأثر أصلها وضعفت وضعف محصولها، كذلك المؤمن إن مُنع أو امتنع من الذكر والطاعة وتحصيل العلم وأعمال الإيمان ينقص أصله ويتأثر قلبه.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ البقرة:١١٤.

قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المطففين:١٤.

٥- ومن الحِكَم أن الشجرة تنفي أي عضو معطوب فيها لا ينفعها، فالورقة تسقط إن لم تكن فعالة، والفروع تتهاوى إن تكن قوية حمالة، لتبقى الشجرة مرنة مع الرياح، كذلك المؤمن إذا أذنب ذنبا، أو أصاب مالا حراما، أو أصيب بالبلاء والمحن، استغفر ربه وطهر ماله وزكى قلبه، وجدد إيمانه، حتى يكون طيب الرائحة كثير النفع له ولغيره كما هو حال الشجرة الطيبة في نفعها، ريحها طيبة، وثمراتها طيبة. وينتفع بكل جزء منها، ساقا وفروعا وأوراقا، وأزهارا وجمارا وثمارا.

٦- ومن الحِكَم أن الشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عروق ثابتة، ولا فروع عالية، ولا ثمار زكية، فلا ظل لمستظل، ولا ساق تنمو ولا عرق، فتجتث من فوق الأرض للوقود

والحرق، كذلك المشرك والمجرم والكافر، والمنافق والكذاب والفاجر، ما يلبث أن يراوغ، ويكذب ويتحرى الكذب، ويؤذي الآخرين، ويأكل أموال الناس بالباطل، ولو كانوا فقراء مساكين، حتى ينال عقابه، فتقطع يده أو يسجن أو يقتل أو يرجم، أو توافيه المنية على كفره وشركه ليحرق في جهنم وبئس المصير.

